

الأحلام

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نايل

مدرس الفلسفة بمدرسة شين الكوم الثانوية

اختلفت نظرة الناس إلى الحلم فمنهم من يؤمن به إيماناً قوياً لدرجة أنهم ينسبون إليه القدرة على التنبؤ بالمستقبل ؛ ومنهم من يرى أن الحلم ظاهرة فارغة خالية من المعنى ، وكلا الرأيين لا يطمئن إليهما النظر العلمى السليم لما فيهما من تطرف . وستقتصر في بحثنا على عرض آراء فرويد مع الإشارة إلى آراء العلماء الآخرين الذين نقدوه من أمثال يونج وأدلر ووليم براون وصمويل لوى . فهذه الطريقة يكون في قدرتنا أن نصل إلى حكم سليم على الدوافع التى كانت سبباً في حدوث الحلم والمعنى الذى يهدف إليه .

يرى فرويد أن كل حلم ما هو إلا تحقيق لرغبة ما ، وغالباً ما تكون مكتوبة في اللاشعور . والأسلوب الذى يتخذه اللاشعور في تحقيق رغباته ليس أسلوباً سافراً صريحاً بل هو أسلوب تنكرى أشبه ما يكون باللغة الميروغليفيه . وهذا الأسلوب يخضع لقوانين معقدة ومتنوعة في نفس الوقت . ولعل هذا هو السبب في أن القانون العام الذى تسير وفقاً له الأحلام قد فاتنا اكتشافه في الأيام الماضية ، وفي إنكار العلماء لكل مغزى أو دلالة للحلم . ولعل الدافع إلى هذه النظرة يرجع إلى تركيز المجهود في تلك الصورة المشوهة التى يظهر بها الحلم أو إلى الصورة المضطربة التى يقص بها الحلم حلمه . ولكن الأمر في الأحلام ليس مقصوراً على تلك الصورة المضطربة التى يظهر بها الحلم أو المضمون الصريح إذا ما استعملنا اللغة الفنية . وإنما الأمر أعمق من هذا بكثير . فهذا المضمون الصريح يناظره المضمون الكامن أى الأفكار المخبوءة التى تنكشف عن طريق التحليل . ويتكون المضمون الصريح للحلم من الذكريات القديمة للحالم مرتبة ترتيباً عشوائياً وفقاً لأغلب قوانين التداعى تفاهة . أما قوانين الربط العقلية ، خاصة قانون السببية فتكاد تكون معطلة وتكون الغلبة لقوانين أكثر تفاهة مثل الاقتران والتشابه .

ويمكننا القول - كقاعدة عامة - إن الذكريات التي تستثار بصورة أكثر شيوعاً من غيرها هي ذكريات يوم الحلم - أى اليوم الذى يقع فى مسائه الحلم - وذكريات الطفولة المبكرة . ولقد طرب فرويد كثيراً لظهور ذكريات الطفولة المبكرة فى الحلم ويقول (١) « إن فقدان الذاكرة بالنسبة لحوادث الطفولة المبكرة يمكن أن تغلب على معظمها عن طريق تفسيرنا للأحلام » . وذكريات يوم الحلم تكون عنصراً أساسياً من كل حلم بلا استثناء . والاضطرابات الجسمية الحادثة سواء أكانت عن طريق أعضاء الحس الخارجية أم الداخلية تتجسم فى الحلم . بيد أن هذا التجسم يكون مقنعاً . ولكن ما الدور الذى تقوم به الذكريات والإحساسات التى يشعر بها النائم فى تكوين الحلم ؟ علينا أن نفهم بادئ ذى بدء أن فرويد يقصر الوظيفة الفعالة فى نشوء الحلم على الرغبة ، وكل ما تقوم به ذكريات يوم الحلم والإحساسات التى يشعر بها النائم إنما هو تقديم المواد التى ينسج حولها الحلم الرغبة . وإذا ما عبرنا عن رأى فرويد بعبارة أرسططاليسية فإننا نقول إن الرغبة هي العلة الفاعلة فى نشوء الحلم ، وإن الذكريات والإحساسات ليست شيئاً أكثر من العلة المادية ويقول فرويد « إن للحلم قيمته الذاتية كفعل نفسى وإن الرغبة هي التى تزود الحلم بالدافع لصياغته ، وإن خبرات اليوم السابق لوقوع الحلم هي التى تمد الحلم بالمواد الأكثر وضوحاً » (٢) وهالك مثالا لتحليل حلم يكشف عن أن المنبهات الحسية إنما يحولها الحلم إلى عناصر تنسق مع مضمونه ، وهذا الحلم يدور حول الأثر الذى يحدثه دوى المدافع أثناء غارات الألمان على مدينة لندن فى الحرب العالمية الأولى . فلقد رأى (٣) مريض يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً فى نومه أن مركباً محملاً بالنساء والأطفال يحاول الحرب تحت نيران المدافع . وكان مكان الحادثة الهند أيام الثورة . وفكر الحالم فى نشر أنباء المتاعب الفظيعة التى يقاسمها هؤلاء الناس فى الصحف الإنكليزية دون إزعاج لشعور المدنيين . وتغير منظر الحلم بعد ذلك ، وبدأ الحالم يعنى بالتفكير فى أحسن الطرق لمعاينة الثوار ، فسيصلى بعض الثوار ناراً حامية من أفواه المدافع (كما حدث تاريخياً) وسيحصد البعض الآخر بنيران البنادق فى ميدان المدينة . ولقد نما تفكير الحالم فى الإجراء الثانى . وكان يتساءل عما إذا

Freud, An autobiographical Study, p. 84 (١)

Introductory Lectures on Psycho-analysis p. 223 (٢)

Jones, Papers on Psycho-analysis, p. 215. (٣)

كان هناك ضرر على السكان من شظايا القنابل عندما أفاق على هدير مياه خزان . وهذا الحلم يبدو أنه استجابة لمؤثر حسي ؛ ولكن الجزء الثاني منه استثار ذكريات وقعت منذ ست عشر عاماً بعيداً عن انجلترا . ويظهر في هذا الحلم رغبة الحلم في الانتقام من الألمان لشبههم حرب الغواصات على انجلترا في صورة إخماد للثورة الهندية فكما تمكن الإنجليز من إخماد الثورة الهندية سيتمكنون أيضاً من غلبة وهزيمة الألمان . ففي هذا الحلم يظهر الدور الذي لعبه المؤثر الحسي ولكن ينبغي ألا ننسى أن الحلم يرمى في نفس الوقت إلى رغبة الحلم في الانتقام من الألمان .

وفي الإمكان سرد أمثلة عديدة تكشف لنا عن أن هدف الحلم تحقيق رغبة ما ولذا ذكر هذا الحلم الذي قام بتفسيره Ferenczi (١) . رأت إحدى السيدات في نومها أنها تخفق كلباً صغيراً أبيض اللون . وعلى الرغم من أن المضمون الصريح للحلم مألوف . إلا أنه كان مبعث حيرة للحالمة . وهنا استعانت الحالمة به ليكشف لها عن معنى الحلم . وأثناء التحليل ذكرت الحالمة حبها للطهي وخاصة طهي الحمام والكتاكيت . وكانت تلجأ في ذبحها إلى لي رقبتها الأمر الذي كانت تشعر معه باشمئزاز شديد . ولذا كانت تنتهي من هذه العملية بأقصى سرعة ممكنة . ولقد ذكرت الحالمة عند ذكرها هذه النقطة بالذات أنها فعلت في حلمها بالكلب ما تفعله بالكتاكيت . واستطردت الحالمة بعد ذلك إلى طريقة الشق وشعور المحكوم عايمهم بالإعدام مما أثار شكوك المحلل فسألها عما إذا كانت تحمل ضغينة لشخص ما . ولقد أكدت الحالمة صحة شكوكه فذكرت أنها تتضايق من تدخل أخت زوجها في علاقتها بزوجها ، وانتهى بها الأمر إلى طردها من منزلها قائلة لها : اخرجي ، إنني لا أريد كلباً ينهش في بيتي . « والرغبة التي يهدف إليها الحلم واضحة وهي رغبة الحالمة في التخلص من أخت زوجها .

ولكن ما المنهج الذي اصطنعه فرويد في تفسير الحلم ؟ منهج التداعي التلقائي . فعلى الحالمة أن يترك نفسه على سجيته دون أية محاولة من جانبه للتعديل والتحوير ، وأن يتخذ الاتجاه العقلي الذي يساعده على عملية التوقع التأملية meditative expectancy . وعلى الحالمة أيضاً أن يقدر تمام التقدير جميع أجزاء الحلم ويذكر بدقة الأفكار والمعاني التي تتداعي تلقائياً بالنسبة لكل جزء من أجزاء الحلم . ومن المهم

(١) Ferenczi, "The Psychological Analysis of Dreams". in the American Journal of Psychology, vol. XXI, No 2, April, 1910, p. 322.

بل من الضروري لنجاح منهج التداعي التلقائي أن يتجنب الإنسان كل محاولة من شأنها التعديل أو الإضافة . فيجب على الحالم أن يعطى تقريراً أميناً لكل جزء من أجزاء الحلم مهما بدت تفاهته . وهذه الأفكار - التي يتكشف عنها التحليل - ستلتافى في نظام من الأفكار يهدف إلى تحقيق رغبة . ومجموعة الأفكار التي يكشف عنها التداعي التلقائي تكون ما يسمى بالمضمون الكامن أو معنى الحلم .

وإذا كان فرويد يقول إن كل حلم يكشف عن تحقيق رغبة ، فهناك طريقتان للكشف عن صحة هذا الرأي الذي يبدو غريباً : الطريقة الأولى هي التحليل المباشر للأحلام التي تبدو في تعارض ظاهر مع هذه النظرية وأن يظهر التحليل حقيقة أن الحلم يتكشف عن تحقيق رغبة أو على الأقل يتطلبها . والطريقة الثانية هي البدء بأحلام بسيطة تبدو فيها الرغبة سافرة دون تحليل ثم نترج إلى الأحلام التي يتزايد فيها أثر عملية التعديل الذي يصيب الحلم ، كما في الأحلام الغامضة والأحلام التي يصاحبها الضيق distressing dreams لنرى هل في الإمكان ردها إلى نفس الصيغة التي تفيد أن كل حلم هو تحقيق لرغبة . ولقد استخدم فرويد كلا المنهجين في كتاباته المختلفة ولكننا سنسير على هدى الطريقة الثانية التي تبدأ من الأحلام الواضحة إلى الأكثر تعقيداً وسنبداً بأحلام الأطفال . يروي فرويد قصة طريفة عن صبي كان مكلفاً بحمل سلة من « الفراولا » إلى جده ، هديته في عيد ميلاده ، فسمع ذلك الصبي في نفس الليلة يتم في حلمه « لقد أكل جوني الفراولا جميعها » . فعوض الحلم الطفل وحقق له أمانيه ، وفي هذا المثال يبدو تحقيق الرغبة واضحاً . وكثير من أحلام البالغين لا تقل وضوحاً في الكشف عن الرغبات عن أحلام الأطفال « وهذه هي الأحلام التي ألفناها طوال حياتنا والتي تحدث عن ضغط الحاجات الجسمية كالجوع والعطش والرغبة الجنسية » (١) .

ويستنتج فرويد من بحثه لأحلام الأطفال عدة نتائج على درجة بالغة من الأهمية . فيلاحظ أولاً أن هذه الأحلام تكاد أن تكون خالية من التحريف ، ويلاحظ ثانياً أن أحلام الطفولة ليست هراء وإنما تهدف إلى معنى وتكشف عن رغبة لم تتحقق في عالم الواقع ، ويلاحظ ثالثاً أن أحلام الأطفال هي ردود أفعال لحوادث وقعت لهم في اليوم السابق وتركت وراءها آثاراً من القلق أو التوقع ..

وإذا كان فرويد يقرر أن للمؤثرات الحسية أثراً في تكوين الحلم إلا أن هذا الأثر ليس جوهرياً. ويجد فرويد في أحلام الأطفال شاهداً قوياً على أن المؤثرات الحسية ليست جزءاً أساسياً في الحلم لأننا لا نجد لها في أحلام الأطفال إلا نادراً. وليس معنى هذا إغفال أثر هذه المؤثرات العضوية وإنما كل ما يرمى إليه فرويد هو بيان أن المؤثرات العقلية هي السبب الفعال في نشأة الحلم. ويقول فرويد في هذا الصدد: «إذا كانت الأحلام (١) ردود أفعال للمؤثرات العقلية فإن قيمتها تكمن في قدرتها على تصريف التهيج مما يترتب عليه زوال هذه المؤثرات واستمرار النوم. ونحن لا نستطيع أن نعرف كيف يحدث هذا التصريف من الوجهة الديناميكية ولكننا نلاحظ بوجه مباشر أن الأحلام ليست مقلقة للنوم (وهذا هو الاتهام الموجه إليها) ولكنها حارسة عليه وتعمل على تخليصه من المؤثرات المقلقة»

ونحن إذا ما عقدنا المقارنة بين الحلم والفعل المرضى المضطرب لوجدنا مماثلة تستوقف النظر. فالفعل المضطرب إنما هو توفيق يحدث عن التداخل الحادث بين دافعين: الدافع المعطّل disturbed tendency والدافع المعطّل. وتندرج الأحلام تحت نفس المقولة. فالليل المعطّل هو الرغبة في النوم والميل المعطّل يتمثل في المنبه العقلي الذي يمكن تسميته بالرغبة التي تكدر في سبيل الإشباع ما دما لا نعرف حتى الآن أى مؤثر يعوق النوم. وهنا نجد مرة أخرى أن الحلم هو نتيجة التوفيق: إننا لا ننام ومع ذلك نشعر بتحقيق الرغبة، وتحقق الرغبة وفي الوقت نفسه ننام.

ولكن كيف يفسر فرويد الأحلام المصحوبة بضيق؟ هذه الأحلام التي تحقق المخاوف أكثر مما تحقق الرغبات ما دام يقول إن كل حلم يتكشف عن تحقيق رغبة: وكيف يفسر أيضاً «الكابوس» حيث بلغ طابع الضيق المصاحب للحلم أقصى ذروته؟ يعتقد فرويد إن في إمكانه تفسير هذه الأحلام عن طريق فكرة «الرقيب». ولعل في الحلم الغريب الذي تذكره الدكتورة فراوهرج هلموت ما يعطينا فكرة واضحة عن معنى الرقيب عند فرويد. رأت هذا الحلم امرأة كبيرة تبلغ من العمر خمسين عاماً. وقد مات زوجها منذ ١٢ سنة وكان يشغل وظيفة ضابط كبير بالجيش. وقد حدث لها هذا الحلم عند ما كان ابنها في جبهة القتال. رأت السيدة في نومها أنها ذهبت إلى المستشفى العسكري وأبدت رغبتها في

مقابلة كبير الأطباء لأنها تبغى عرض خدماتها على المستشفى . ولقد فهم الحارس من هجتها خاصة بعد أن ضغطت على كلمة خدمات أنها تعنى الخدمة الغرامية love-service . فتردد ولكنه سرعان ما سمح لها بالدخول . ودخلت الحاملة غرفة كبيرة حيث وجدت عدداً كبيراً من الضباط والأطباء جالسين حول مائدة . وتوجهت إلى أحد الأطباء الجراحين وعرضت عليه اقتراحها قائلة : « أنا وعدد كبير من نساء وقتيات فينا مستعدات ومع استمرارها في الحلم إلا أنها سمعت دمدمة . . أن نهب أنفسنا للجنود والضباط والخاصة دون ما تمييز . . وعم المكان صمت رهيب . وهنا وضع الطبيب الذى يحدثها ذراعه حول خصرها قائلاً : « سيدتى العزيزة لنفرض أننا قبلنا فعلاً وهنا سمعت مرة ثانية دمدمة وانفلتت الحاملة من ذراع الطبيب وهى تتمتم « كلهم سواسية » ثم أجابت : « يا إلهى إننى امرأة مسنة وقد لا يتفق لى أن أكون فى مثل هذا الوضع فضلاً عن أن حالتي يجب أن تراعى فهناك اعتبار السن فيجب على امرأة مسنة مثلى ألا . . . وهنا تسمع الحاملة دمدمة مع شاب فى عنفوان شبابه إن هذا لفظيع . وهنا قال الطبيب : « إنى فاهم ما تعنين جيداً يا سيدتى » وأراها السلام التى تفضى إلى حجرة كبير الأطباء . وبينما تصعد السلم إذ سمعت أحد الضباط يقول « هذا عزم عظيم وسواء أكانت المرأة صغيرة أم كبيرة فلها كل الفخر » (١)

وتنجلى فى هذا الحلم ظاهرة أخاذة وهى استبدال الدمدمة بالفقرات الثلاث التى لا تتفق مع الشعور الخلقى للحاملة . ولا يرجع فرويد هذه الظاهرة إلى محض الصدفة والاتفاق بل يرى أن الشعور الخلقى كان يعمل بصورة ضعيفة أثناء النوم مما ترتب عليه حدوث مقاطعة تستوقف النظر فى النقط البشعة . ويشبه الحلم ، فى صورته المشوهة الصحف أثناء فترة الحرب حيث تبدو المسافات البيضاء رمزاً لما حذفه الرقيب . وقد ينبجج الصحفي فى الاحتيال على الرقيب بنشر الخبر فى عبارة غامضة يشتم منها المعنى الذى يقصده . ويرى فرويد أن « إخماد » هذه الفقرات الثلاث الخارجة عن الأدب مرده إلى أثر الرقابة النفسية الداخلية . ولكن ما الذى يعنيه فرويد بالرقيب ؟ لا يعنى فرويد بالرقيب أية وحدة أو

ملكة^(١). وكل ما يعنيه فرويد بالرقيب مجموعة الدوافع التي تسيطر على شعور فرد معين بالقدر الذى تستطيع معه هذه الدوافع أن تكبح وتكف الدوافع المعارضة لها وأن تردها إلى اللاشعور. ومما يجب ملاحظته فى هذا المقام أننا نمارس هذه الوظيفة الكابحة بطريقة شعورية فى الطفولة ثم ما تلبث أن تصبح هذه الممارسة أوتوماتية وبعدها تصبح لاشعورية ويحل الكبت محل الإخماد. ولا يقتصر عمل الرقيب على إرسال الدوافع والرغبات المعارضة عند حلولها فى الشعور إلى اللاشعور - بل إن وظيفته المانعة تبدأ قبل أن تصبح هذه الدوافع مشعوراً بها.

وعلى هذا أن نحدد بالدقة ما نقصده بالإخماد suppression والكبت repression والرقيب. نعى بالإخماد الكف الشعورى المقصود وبالكبت الكف اللاشعورى. ولا تشير إحدى هاتين الكلمتين إلى توقف عملية الكف على القيم الخلقية. ويجب علينا أن نلاحظ من ناحية أخرى أن لفظ « الرقيب » لا يشير أية إشارة إلى شعورية أو لاشعورية عملية الكف ؛ وكل ما فى الأمر أنه يسمح للأفكار التى تتسق مع القيم الخلقية بالنفوذ إلى الشعور.

وحلم الخدمة الغرامية يكشف لنا عن عمل الرقيب كما أن فى الإمكان الاستدلال على وجوده أثناء عملية التحليل. فالخوال الذى نجده فى صورة الحلم والمقاومة الداخلية التى يشعر بها المرء إزاء عملية التداعى التلقائى والاعتراضات التى يبديها المريض بإزاء الإيحاء، كل هاتيك الظواهر إنما تكشف وتبرهن على وجود الرقيب. وتحدث هذه المقاومة كلما شعر الشخص أن فكرة على وشك البزوغ من اللاشعور. ويتطلب إدماج فكرة الرقيب فى إطار المذهب الفرويدى تغييراً فى صيغة الحلم التى فرغنا سابقاً من تقريرها. وبناء على هذا، لن يكون الحلم مجرد توفيق بين الرغبة فى النوم وفكرة أخرى تحول دونها. فإن هذا التفسير يكفى فى الحالات البسيطة. ولدينا الآن ما يبرر القول بأن الحلم نتيجة لتداخل قوى ثلاث : الرغبة فى النوم ؛ ورغبة تتفاوت درجة إيلاهما قد حيل بينها وبين الظهور ؛ والرقيب. وحيث أن الرغبة المؤهلة لا تستطيع أن تتخطى حدود الرقيب. فإنها لا تستطيع أن تكشف عن نفسها إلا بآثار غير مباشرة أى بإشارات وتلميحات يتفاوت حفظها من الوضوح والغموض. وهنا نجد أنفسنا بإزاء صيغة أو قانون جديد للحلم « الحلم تحقيق مقنع لرغبة مخمودة أو مكبوتة ».

وتمكن هذه الصيغة الحديدية فرويد من الرد على نوعين من الاعتراضات .
الاعتراض الذى يقول باستحالة عزو بعض الأحلام التى تبدو طبيعتها غير مفهومة
إلى علل نفسية حقيقية، والاعتراض الثانى الحادث من الانفعالات المؤلمة الصاحبة
لأحلام كثيرة .

ومن الخطأ الزعم بأن فرويد يعتقد أن الرقيب وحده هو السبب الوحيد الذى
يرجع إليه الصورة غير المفهومة التى تبدو بها بعض الأحلام . فعظم الميكانيزمات
التي تسير الحلم من تكثيف وتجسيم ورمزية وتعديل ثانوى يمكن أن تعمل وحدها
مستقلة عن الرقيب . وميكانيزم الإبدال هو الميكانيزم الوحيد الذى ينسبه فرويد
دائماً إلى الرقيب . وإذا كان من الصعب وضع حدود فاصلة بين ميكانيزمات الحلم
فإن فكرة فرويد عن « الرقيب » تبدو أقل صرامة مما يظن المرء ؛ ولكننا فى الوقت
نفسه لا نستطيع أن ننكر أن فرويد قد أكد من قيمة الدور الذى يحدثه الكبت
والرقيب فى تشويه صورة الحلم . وفى حلم « خنق الكلب الأبيض » سيقرر فرويد
حتماً أن الرقيب قد لعب دوراً هاماً فى صورة الحلم . فقد حالت القوانين دون
ظهور رغبة المريضة فى قتل أخت زوجها سافرة . وإن الأفكار الخيالية المرتبطة
بفكرة القتل التى ظهرت أثناء التحليل لدليل قاطع على وجود هذه الميول . وتحليل
هذا الحلم قد كشف عن دوافع غريزية عنيفة . ويرى فرويد أن هذه الدوافع
الغريزية العنيفة ليست غريبة عن عالم الحلم . ولا يقتصر الأمر على ذلك بل إن
نسبة كبيرة من الرغبات المكبوتة التى تتحقق فى أحلام البالغين ترجع فى صميمها
إلى أيام الطفولة . وهى فى صميمها أحلام جنسية لأن الحياة الجنسية تبدأ عند الطفل
فى وقت أكثر بكوناً مما يظنه العلماء . وتجد الميول الجنسية موضوعها الخارجى الأول
فى الوالدين ثم تتعرض لكبت شديد نتيجة لثقافة المرء وتربيته وتكشف هذه الرغبات
الجنسية عن نفسها فيما بعد . ويكون انجذاب الأبناء نحو الجنس الآخر (١) من
والديهم مصحوباً بالكراهية والحسد . بيد أن هذه الرغبة المكبوتة من جانب الأبناء
نحو الجنس الآخر من والديهم تجد ما يحققها فى عالم الأحلام عن طريق موت الأب
أو الأم حسباً تقتضيه الظروف . وإذا ما عرفنا أن فكرة الموت عند الأطفال فكرة
غامضة وتكاد تناظر فى أغلب الأحيان فكرة الغياب المستمر permanent absence
فإن هذا رأى لن يبدو بالشناعة التى نتصورها . وما لا شك فيه أن المفكرين قد

بالغوا في استواء العاطفة العائلية ، فانفعالات الكراهية التي تستثار في المحيط العائلي غالباً ما تكون عنيفة وإن لم يكن هذا في جميع الحالات . وكلما شب الطفل تخفى هذه الانفعالات وتفسح المجال لنمو العاطفة في أشكال يقبلها المجتمع .

ويبدو من الغرابة بمكان أن تستطيع رغبة لا خلقية كالرغبة في موت أحد الوالدين الإفلات من الرقيب وأن تؤدي إلى تحقيق الحلم . فهناك حقيقتان تفسران هذا الأمر بسهولة . فنلاحظ أولاً أن فكرة التخلص من أحد الوالدين هي آخر فكرة في الوجود يمكن أن تخطر على بالنا ولا يمكن أن نرحب بها بأية حال من الأحوال . ونلاحظ ثانياً أن تحقيق هذه الرغبة في الحلم يكون مصحوباً بانفعال الأسف العميق الذي يمكن تفسيره بدرجة كافية بشعور القلق من أجل سلامة الشخص الذي يحسه الحلم إحساساً حقيقياً في أوقات قريبة خاصة في اليوم السابق لوقوع الحلم . والمصدر الحقيقي للشعور بالأسف العميق أن الفكرة قد أفلحت في التغلب على مقاومة الرقيب .

وإذا كان الحلم حقاً يرمى إلى تحقيق رغبة فكيف نفسر الانفعالات المؤلمة التي تصاحب بعض الأحلام ؟ يرجع السبب في ذلك - فيما يرى فرويد - إلى أن الرقيب لم ينجح تماماً في عملية التعديل . فإن الأفكار الكامنة التي ولدتها مشاغل اليقظة كانت شديدة الإيلام . فلقد جاهد عمل الحلم dream-work في سبيل نقل هذه الأفكار واستبدال أخرى بها تكون أكثر إشباعاً ، ولكن الانفعالات أكثر صعوبة في نقلها من الصور الحسية ، ولهذا السبب تعترضنا هذه الظاهرة المعضلة التي تبدو في المضمون الظاهر لبعض الأحلام وأعنى بها أن الصور ذات الطبيعة غير المؤلمة تكون مصحوبة بانفعالات مؤلمة . ولقد اتخذ خصوم فرويد من هذه الظاهرة وسيلة لنقض نظرية فرويد وهدمها ، ولكن فرويد لا يرى في هذه الظاهرة ما يضعف من قيمة مذهبه لأن تحليل هذا النوع من الأحلام يكشف عن أن الصورة الكامنة قد استبدلت بها صورة أخرى عادية في المضمون الظاهر للحلم . وإن التباين الذي يظهر في المضمون الظاهر بين الصور العادية - أي التي لا تستدعي بطبيعتها انفعالات مؤلمة - والانفعالات المؤلمة المصاحبة لها ليكشف عن أن عملية التعديل لم تتم . فلقد نجحت عملية التعديل في فصل الطابع

التأثرى عن صورته وإبدائها بصورة ملائمة أو على الأقل بصورة عادية ولكنها فشلت في كبت ونقل الطابع التأثرى .

ويضيف فرويد إلى التفسير السابق تفسيراً آخر يعلق عليه أهمية كبيرة . فمن المعروف أن تحقيق هذه الرغبة في الحلم يكون مصدر لذة للحالم . ولكن ينبغي ألا تكون الرغبة التي نبغى تحقيقها متعارضة مع الرغبات الأخرى التي تفضلها الشخصية الشعورية . والفهم الواضح لفكرة الرقيب عند فرويد يساعدنا في فهم هذه المشكلة . فإذا كانت الرغبات المكبوتة التي يعبر عنها الحلم مصدر لذة للجزء الحيوانى من الإنسان إلا أنها في الوقت نفسه مصدر ألم وضيق للجانب السامى منه . وكثيراً ما تناسينا أن الإنسان كائن ثنائى تمزقه الرغبات المتصارعة . فيستجيب الرقيب للرغبة الحيوانية المنبعثة من أعماق اللاشعور بالضيق والقلق عندما لا يستطيع أن يسيطر على هذه الرغبات الحيوانية إلا بهذه الطريقة . وهذا ما يحدث في الكابوس النفسى المنشأ . وهالك مثالا لكابوس نفسى المنشأ قام بتحليله الدكتور فلورنوى (١)

شخص أعزب في التاسعة عشر من عمره . وكان يشعر بانجذاب عاطفى عميق نحو رجل آخر « ع » دون أن يكون هذا الأخير شاعراً به . وكان « ب » يود الزواج ولكنه يشعر باستحالة ذلك ما دام لا يفكر إلا في « ع » . وفي الوقت الذى كان فيه (ب) يعانى صراعاً باطنياً عنيفاً عندما سمع بخطوبة صديقه (س) لفاتة لم يكن يعنيه من أمرها شيئاً لولم تحدث هذه الخطوبة ولقد أذهله هذا الخبر وأخذ في المقارنة بين شقائه وسعادة صديقه « س » ولقد كان عليه أن يكتب لصديقه « ع » في مسائل تختص بالعمل . وكان إذ ذاك يشعر بىأس شديد . وفي المساء أطلق ب العنان لأفكاره الجنسية التي تتماكه بازاء صديقه ع . وقبل النوم مباشرة أطلق ب العنان لأوهامه الغريزية . وتملكه إحساس قوى بأنه قد ينام مع « ع » في سريره واحتضن كل منهما الآخر وتملكه .

وفي منتصف الساعة الرابعة استيقظ ب من نومه فجأة على هذا الكابوس وأخذ في كتابته مباشرة بناء على إرشادات الدكتور فلورنوى . والجزء الأول غامض « أنا في غرفة عرس أحاول عبثاً النوم مع خطيبة « س » التي خيل إلى في ذلك الوقت

Flournoy, "Symbolismes en psychopathologie", in Archives de Psychologie, (١)
vol XVII, p. 189

أنها زوجتي » والجزء الثاني واضح « أنا في فراشي في غرفتي المألوفة وفي الركن المقابل أرى « ع » راقداً في فراش آخر . وقد تحدثت إليه ببعض الكلمات التي تكشف عن شعوري نحوه والتي تتضمن إشارة غامضة لعرض (مأرب جنسي) تقدمت به إليه . وفي هذه اللحظة قفز « ع » من فراشه عارياً اللهم إلا من قميصه كمجنون واندفع نحو النافذة ثم اتجه نحوي محاولاً خنقي (سمعت أمس عن قصة مجنون حاول أن يخنق آخر) . ولقد عرفت في الحال مصيري . ولكني لم أبذل جهداً لحياة نفسي . ولقد شل الرعب كل جسمي . وقبل أن يلمنى مباشرة قفزت من سريري مرتاعاً ، ولقد شعرت برعب وخوف شديدين لم أشعر بهما من قبل عند رؤيتي لهذا المنظر الذي مر بسرعة البرق وشعرت بقشعريرة شديدة وكنت بارداً كالثلج . وبعد مضي ربع ساعة استعدت توازني ودونت ما رأيته .

وهاك تفسير الدكتور فلورنوي . الجزء الأول يفسر نفسه بنفسه . ويحقق فيه « ب » رغبته في الزواج عن طريق احتلاله لمكان صديقه « س » وامتلاكه لخطيبته . ولكن هذه المحاولات منيت بالفشل . وبعد هذه المحاولة الشاذة ، سادت الرغبة الغريزية الشاذة الموقف وكونت الجزء الثاني من الحلم الذي يبدو أكثر وضوحاً . فالفنتازيا الخيالية تحاول أن تظهر ثنائية أثناء النوم الرغبات التي تملكته قبل النوم . فلقد تخيل « ب » قبل نومه مباشرة أنه يضم ويتملك موضوع حبه « ع » ولم تسمح شخصيته الحاملة ولا الشاعرة أن تذهب الأمور إلى أبعد من ذلك ودافعت عن نفسها بطرقها الخاصة . فبدلاً من أن يخضع « ب » لميوله الشاذة فإنه استعار الدافع من حادثة قيلت له في اليوم السابق لوقوع الحلم ليحل مشكلته بطريقة مؤثرة ولكنها في الوقت نفسه لا تتضمن شيئاً معيناً بالنسبة للحالم أو لصديقه « ع » . فعليه أن يموت بين يدي محبوبه الذي أصبح مجنوناً .

ويتمثل في الكابوس الصراع بين الرغبة والرقيب . وعلينا أن نميز بين ضربين من الكابوس النفسي المنشأ . النوع الأول وتبادو فيه الرغبة الجنسية في المضمون الصريح للحلم كما في الكابوس الذي ذكره الدكتور فلورنوي . والنوع الثاني الذي لا تظهر في مضمونه الظاهر أى فكرة جنسية .

ويعتقد فرويد أن المضمون الصريح في هذا النوع خداع بل ويؤكد أن الصور اللاجنسية التي تظهر فيه ما هي إلا صور مقنعة للرغبات الجنسية الكامنة التي تظهر بعد عملية تحليل الحلم . فيكون الشعور بالقلق كرد فعل للرغبة الجنسية

للكابوس الذى لا يظهر فى مضمونه الصريح أية صورة جنسية ومن ثم تكون صور المضمون الظاهر صوراً بديلة لا قيمة لها فى ذاتها للصور الجنسية . وإذا كان فرويد يقرر صراحة أن الرغبة التى يتكشف عنها الحلم ليس من الضرورى أن يكون رغبة جنسية إلا أنه فيما يختص بالكابوس النفسى المنشأ يلجأ مباشرة إلى التفسيرات الجنسية . ويذهب فرويد إلى أن القلق المصاحب لبعض الأحلام شبيه بالقلق المرضى المصاحب للعصاب الذى يحدث نتيجة لكون كبت الدوافع الجنسية لم يكن كاملاً . ومع ذلك فإن فرويد يقرر أن أى خطأ سواء أكان داخلياً أم خارجياً يحدث القلق إلا أنه يميل إلى التقليل من شأن هذه الدوافع اللاجنسية .

ويجب ألا نفهم أن المضمون الكامن للحلم يقتصر على الرغبات وحدها فإن فرويد يقرر صراحة أن هناك ضرباً متنوعاً من النشاط النفسى من تدبير وتوقع وتحذير ومحاولة حل المشاكل . وإذا ما فسرنا نظرية فرويد بدقة فإنها تنحصر فى تأكيد القول بأن الاتجاه الذى تأخذه عملية التعديل فى سيرها من المضمون الكامن إلى الصريح إنما تتحدد وتتعين « بالرغبة » التى يهدف إليها الحلم .

وعام ١٩٢٠ خفف فرويد من حدة نظريته فى تحقيق الرغبات . فأكد الحقيقة القائلة بأن أحلام المرضى الذين يعانون من عصاب ناشئ عن صدمة هى عادة من آثار الحادث الذى كان سبباً فى العصاب . ولكن هذا التعديل لا يتسق مع نظريته (١) ولقد دفعته اعتبارات أخرى إلى القول « بوجود ميل » لا يقاوم للإعادة والتكرار فى الحياة النفسية وهذا الميل ميل لا يحفل بمبدأ اللذة ويفوقه « وهذه الأهمية المعطاة لآلية التكرار تتضمن تعديلاً جوهرياً لآراء فرويد وتقلل من شدة الخلاف بين مذهبه والمذاهب المقبولة فى تفسير الحلم . ولعل هذا يخفف من حدة نقد وليم براون لنظرية فرويد فى تحقيق الرغبات فىرى وليم براون أننا إذا استبدلنا « بالرغبة » الميول العاطفية (٢) والغريزية لاستقامت نظرية فرويد مع اتجاهات علم النفس الحديث .

ومن أمثلة الدوافع الغريزية المحافظة على الذات والخوف والاشمئزاز . وقد تندفع الأفكار المرتبطة بهذه الانفعالات والعواطف من الشعور إلى اللاشعور وتظهر ثانية فى ظروف خاصة فى الأحلام . ويذكر وليم براون للتدليل على صحة رأيه خبرة

Beyond the Pleasure Principle, P.P. 8-10 (١)

W. Brown : Psychology & psychotherapy, p.p.-3534. (٢)

وقعت له منذ سنين وفيها يظهر أثر الخوف المكبوت الذى يكبح فى سبيل الظهور من اللاشعور إلى الشعور. ويقول : «عندما كنت ذات يوم فى الصيد سقطت مرتين متتابعتين ، ولكن مما أدهشنى أننى لم أشعر فى حماسة الصيد باضطرابات عضوية كأثر من آثار الخوف . وفى تلك الليلة حلمت بكل ما حدث فى الصيد من البداية إلى النهاية مع شعورى بخوف شديد . وكان يعاودنى الخوف حتى بعد مرور شهر عديدة مع أننى لم أشعر بذلك مطلقاً أثناء النهار . ولم يظهر التحليل النفسى أى فكرة فى المضمون الكامن للحلم تفسر هذا الخوف . ومن الصعوبة تفسير هذا الحلم على أنه تحقيق لرغبة وإن كان يوضح الجانب الآخر من النظرية أعنى الكبت وانتهى فرويد إلى أن الرغبات التى تحقق فى الحلم غالباً ما تكون جنسية ، كما أن الرموز التى تظهر فى الحلم رموز جنسية . فقد لاحظ أن تداعى الخواطر بالغاً ما بلغت وجوه الاختلاف فيه باختلاف أفرادها فان هناك أشكالاً من التداعى يتفق فيها الناس جميعاً . ومن هنا وجدت رموز ثابتة تعبر عند جميع الشعوب عن أشياء بعينها ، فالرجال يرمز إليهم عادة بالأشياء الطويلة أو الحادة مثل العصي والسكاكين بينما ترمز للمرأة الأشياء المخوفة من كهوف وسفن وخصوصاً علبه المجوهرات ولقد أظهرت التجارب التى أجراها الدكتور شروتر Schroter إمكانية صدق نظرية فرويد فى الرموز . فكان ينوم المختبرات تنويمياً مغناطيسياً ويوحى إليهن بالفكرة الآتية « ستحلمين الآن بأنك تزاولين الجماع الجنس مع أحد أصدقائك بالطريقة السوية أولاً ثم بطريقة شاذة . وستنسين هذا الإيحاء وستحلمين بطريقة رمزية عن الجماع . وهماك أحد الأحلام التى رآته إحدى المختبرات .

« بعد ظهر يوم الأحد كنت فى انتظار صديقى لنحتفل سوياً بعيد ميلاده ولقد أحضر زجاجة من الخمر ملفوفة بباطون . ولقد طلب منى أن أتناول كأساً فرفعت كأسى إلى كأسه حيث صب الخمر . ولكن انتابنى الذعر فجأة ووقعت الكأس منى فانكسرت وسالت الخمر على الأرض .

ولقد تضايقت كثيراً لتلوث السجادة ، ولكنه طمأننى قليلاً سأصلحها على الفور ، أعطيتنى كأساً أخرى لأصب لك فيها . فجئت بأخرى حيث حاول أن يسكب فيها بعناية من الخمر الباقية فى الزجاجة . ولكن عند ما انسكبت أول قطرة من الخمر فى الكأس ، جذب صاحبي الزجاجة بعيداً .

ويرى صمويل لوى Samuel Lowy (١) أن هذه الرموز ليست ثابتة كما يزعم فرويد ويذكر أن بعض الأشياء الطويلة التي ظهرت في بعض أحلام الانتصاب erection-dreams تكشف في الوقت نفسه عن مضمون مخالف . ويتصل بهذا مشكلة المناظر الجنسية الصريحة التي تبدو في الحلم . فمن المعروف أن يونج إلى حد ما بيير Bjerre يقللان من قيمة هذه المناظر الجنسية الصريحة ويفسرانها تفسيراً رمزياً ويحكى لنا بيير قصة رجل أفلح عن علاقاته الجنسية الصريحة . فصور الحلم العذاب النفسي الذي كان يعانيه في صورة حلم من الأحلام الجنسية المثلية homosexual . ولقد أكد بيير أن الحلم لا يظهر عليه أية علامة من علامات الميل الجنسي المثلي وأن هذا التفسير هو التفسير الوحيد المقبول . ونحن أحرار في قبول هذا التفسير أو التشكيك فيه لأننا في موقف لا يسمح لنا بأي نقد . ويمكن أن نقول نفس القول بالنسبة لتفسير أدلر لعقدة المحارم incest-complex . فبى أدلر أنها تهدف إلى نظام غاى أى أن تخيف المرء وتحفظه من العلاقات الجنسية التي يخشى نتائجها .

ويرى صمويل لوى أن من الصعب (٢) إثبات أوفى الرأى القائل بأن الرغبة الجنسية الطفلية هى الدافع الحقيقى الخلاق للحلم كما ذهب فرويد . ويقرر أنه إذا كانت الخلية غير المخصبة خلية جنسية فإن الخلية الجنسية المخصبة هى بالفعل كائن حى . وإذا كان الكائن الحى يرجع في وجوده إلى الخلية الجنسية إلا أنه في الوقت نفسه كائن يختلف عنها . ومن هذا يبدو قصور نظرية فرويد في تفسير الحقائق . ولكننا نكون بمأمن من الخطأ إذا ما عزونا أيضاً إلى عملية الحلم وظيفة بيولوجية عامة .

وأهم نقد وجهه صمويل لوى لفرويد نقده في قوله المشهور « الحلم يحقق رغبة » فإذا ما تحققت رغبة في الحلم فعنى ذلك إرضاء ملموس للرغبة . وكذلك الحال في أحلام اليقظة التي تعوضنا عن متاعب الحياة ومصاعبها . ويرى لوى أن ظاهرة تحقق العقدة complex في الحلم لا يغير أنها تناظر رغبة حتى ولو كانت رغبة مكبوتة . حقاً إننا نقول على سبيل الإيضاح أن المريض يكبت رغباته المحرمة في هامش الشعور . ولكن هذا القول فرض ناجح بالنسبة لكثير من الحالات والعقد .

Ibid. p. 137. (١)

Ibid. p. 139. (٢)

ويعتقد لوى أننا نكون أكثر تحرياً للذة إذا ما عرفنا أن هناك عناصر مقدراً (١) لها منذ البدء أن تكون في مجال هامش الشعور ، عناصر تحتفظ بها الشخصية الإنسانية وتود الاحتفاظ بها ولكن بشكل لا شعورى . ويكون تحقيقها في مثل هذه الحالات هو الهدف الذى نهدف إليه ونشأقه . وفي مجال اليقظة نشاهد مثل هذه الظاهرة في تحقيق الرغبات الوهمية . فاننا كثيراً ما نتخيل لأنفسنا مواقف وحالات نتمتع بها كأوهام ولكننا لا نرحب إطلاقاً بتحقيقها في الواقع . فمجال الأوهام هو المجال الذى ترغبه الخبرة الوجدانية . ويصدق هذا القول بالنسبة للعقد المرضية إذا ما فهمناها على أنها تشمل جميع العناصر التى كان عابها أن تكبت ما لو كانت عناصر شعورية . ولكن لوى لا ينكر أن هناك رغبات تتحقق في الأحلام وهى الرغبات التى تسعى الشخصية جاهدة في تحقيقها أثناء اليقظة . ونكون في هذه الحالة بصدد تعويض أو خبرة بديلة substitute-experience تتمثل في الحلم . ولكن هذه العناصر التى يجدها الحلم غريبة عليه ولا تتفق مع منازعه في حياة اليقظة إنما تنتمى إلى عالم هامش الشعور .

ويشير لوى إلى ميكانيزم الحلم الذى افترضه وناقشه يونج في محاضراته الموسومة بعنوان Dream Analysis in its practical . فلقد ذهب يونج إلى أن العاطفة الإيجابية الغالبة التى نشعر بها نحو شخص ما (ولقد استشهد في مثاله بالأب المحبوب) يمكن أن تعوض في الحلم ، بطريقة وصفية ، باتجاه ساي أى بالاحتقار . ويرى يونج أن الاتجاهين كلاهما يسيران بدرجة واحدة في اتساق مع « قصد » المريض ويرميان كليهما إلى غرض ، وأن هذا الميكانيزم ميكانيزم معدل معوض regulative and compensating mechanism . وفرض يونج في جوهره فرض صريح فيما يرى لوى ويمكن أن نجد أيضاً مثل هذا التعديل بين القوى والاتجاهات المتعارضة antagonistic regulation في عالم الهرمونات . وهذا التقابل ليس مجرد ماثلة وإنما يكشف عن علاقة عليية لأننا نتساءل : ما الذى يمكن تحت اتجاهات الحب المفرط وهذا التعلق الطاغى في حين أننا نجد من ناحية أخرى حاجة باطنية لإضعاف هذه الاتجاهات ؟ يمكن أن يكون الجهاز العصبى الهرمونى فقط neuro-hormonal apparatus هو الذى يؤثر على هذه الاستجابة المبالغ فيها (لأن الحب

ما هو إلا استجابة نفسية تحدث عن تأثير شخص ما على حاجتنا الغريزية للخب). ويمكننا أن نؤكد أيضاً أن التنظيم العصبى النفسى يعدل فى اتجاه مضاد أى يحدث التوازن . فصورة الحلم التى ينجلى فيها الاتجاه السلبى - اتجاه الاحتقار - يمكن النظر إليها على أنها مجرد تشخيص أى صورة تعبيرية للميل الداخلى المضاد . ويخلص لوى أخيراً إلى رأيه فى الحلم : أن الحلم يحقق حاجات سيكوبولوجية ولا يحقق دائماً رغبات .

عرضنا الآن لنظرية فرويد فى الحلم ولنظريات غيره من العلماء . وعلى الرغم من اختلافهم فى تفسير طبيعة الحلم إلا أنهم متفقون فى أن الحلم ظاهرة ترمى إلى غرض ، سواء كان هذا الغرض تحقيق رغبة صادقة أو التنفيذ عن الميول الغريزية المكبوتة كما يرى وليم براون أو تحقيق حاجات سيكوبولوجية .

كمال الدين عبد الحميد نايل